التخييل فى حسن التعليل

الدكتور

كمال كامل محمود صالح

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية البنات الإسلامية في أسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان ، علمه البيان ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ، أفصح الناطقين بالضاد ، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

وبعد،،،،

فقد اهتم العلماء قديما بدراسة المصطلحات البلاغية التي يستعملونها في دلالاتها الملائمة لها ، وذلك لاهتماماتهم المتناهية بحسن التعامل مع ألفاظ القرآن ودرايتهم الواسعة بمدلولات ألفاظ اللغة ؛ لذلك نجدهم يقبلون بوجود الخيال في الاستعارة ، ويطبقون ذلك على ألفاظ القرآن الكريم ، ولكن يرفضون وجود حسن التعليل في القرآن الكريم لقيامه على التخييل ، وإن كانوا يقرون باستعماله في الشعر والنثر ، ويرفعون من قدره ؛ لقدرته على الإتيان بتعليلات جديدة متوهمة تعبر عن المعنى الذي يريد المنشئ أن يصل به إلى المتلقي.

لذلك كان سبب اختيار الموضوع لما يلي :

أولا : عدم إدراك كثير من الدارسين للفارق بين الخيال والتخييل ، وذلك مما نلحظه كثيرا في الأدبيات الحديثة.

ثانيا : الوقوف على أسباب رفض كثيرٍ من العلماء لوجود حسن التعليل في القرآن الكريم.

وقد قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة ،ومدخل، وثلاثة مباحث على النحو الآتي :

المقدمة وفيها : سبب اختيار الموضوع ، وخطة البحث.

المدخل : معنى التخييل .

المبحث الأول:التخييل في القرآن بين القبول والرفض:

المطلب الأول:آراء المفسرين في وقوعه في القرآن الكريم:

المطلب الثاني : آراء علماء البلاغة في وقوعه في القرآن الكريم .

أولاً :رأي ابن سنان الخفاجي :

ثانياً :رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني

ثالثاً : التخييل عند حازم القرطاجني.

المبحث الثاني: الخيال والتخييل.

أولاً :الخلط بين مصطلحي الخيال والتخييل في الأدبيات الحديثة .

ثانياً : الفرق بين الخيال والتخييل.

المبحث الثالث: حسن التعليل دراسة بلاغية .

أولاً : تناول علماء البلاغة لحسن التعليل .

ثانيا :ما يلحق بحسن التعليل .

ثالثاً:الجمال البلاغي للتخييل في حسن التعليل

الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

والله أسأل القبول والتوفيق ،،،

الدكتور

كمال كامل محمود صالح

الأستاذ المساعد في كلية البنات الإسلامية في أسيوط

مدخل

معنى التخييل

قبل تناول دراسة التخييل في حسن التعليل يجب أولا التعرض لمعنى التخييل في اللغة ؛ لمعرفة السبب في رفض الكثير من العلماء لعدّ حسن التعليل من صور البلاغة القرآنية ، وهل السبب في ذلك يرجع إلى تغلب عنصر التخييل على حسن التعليل ، وما الفرق بين التخييل والخيال ؟

معنى التخييل :

قال ابن منظور : "وخيل فيه الخير وتخيله : ظنه وتفرسه ، وخيل عليه : شبه . وأخال الشئ : اشتبه . يقال : هذا الأمر لا يخيل على أحد أي: لا يشكل . وشئ مخيل أي مشكل ، وفلان يمضي على المخيل أي: على ما خيلت أي: ما شبهت يعني على غرر من غير يقين ، وقد يأتي خلت بمعنى علمت ، قال ابن أحمر :

ولَرُبَّ مِثْلِك قد رَشَدْتُ بغَيِّه وإِخالُ صاحبَ غَيِّه لم يَرْشُد

قال ابن حبيب : إخال هنا أعلم . وخيل عليه تخييلا : وجه التهمة إليه(١).

ومما ذكره ابن منظور يمكن القول : إن التخييل يعني الشيء المختلق الذي ليس له أساس من الواقع ، فهي تعنى: الظن والاشتباه والشيء المشكل ، كما يفهم منها أيضا : أن التخييل جزء من الأدب الخيالي ، لذلك يستحيل إضافة هذه الصفة إلى كلام الله(سبحانه وتعالى) ؛ لأنه منزه عن صفة التخييل.

١- لسان العرب ، ابن منظور ، ج ١١ / ص ٢٢٧ .

كما يتضح من كلام ابن منظور –وغيره من المعاجم اللغوية – أن التخييل يأخذ معه في اللغة كلمات اشتقاقية أخرى ذات دلالات متعددة ، فالمخيلة هي: الآلة ، أو مصدر الخيال، والخيال هو: ما يكون من الإبداع الناتج عن المخيلة، والتخييل هو: فعل التخيل وممارسة الخيال الذي يبعد بالألفاظ عن عالم الواقع ويدخل بها إلى عالم الوهم ورسم الصور والأحداث بطريقة فنية مبدعة يتضاد فيه الخيال مع الواقع .

وهذا يؤكد انتفاء المماثلة ، أو حتى التقارب بين التخييل والواقع ؛ لذا يمكن القول إن لفظ التخييل إنما يعني التوهيم.

واستعمل القرآن الكريم مادة "خيل" في الظن والتوهم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [سورة طه الآية "٦٦"].

معنى "يخيل": "هو إبداء أمر لا حقيقة له"(١).

وقال الجصاص في أحكام القرآن :" فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا ظَنُّوهُ سَعْيًا مِنْهَا لَمْ يَكُنْ سَعْيًا وَإِنَّمَا كَانَ تَخْيِيلًا ".(٢)

فهذا يعني أنها تستعمل في الكذب واستحالة الحدوث الفعلي إذ لا حقيقة في وجوده.

---

١ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ج ٢١ / ص ٦٨.

٢ – أحكام القرآن للجصاص ،صـــ١٠٣.

المبحث الأول

التخييل في القرآن بين القبول والرفض:

المطلب الأول:

آراء المفسرين في وقوعه في القرآن الكريم:

تباينت آراء العلماء في قبول وجود التخييل في القرآن الكريم ، فالبعض بالغ في قبوله في القرآن ، وجعله أساسا قويا في التعبير عن القدرة والقوة ما لا تستطيع أن تدركه عقولنا ، ورفض كثير من المفسرين وجوده في القرآن الكريم.

ونجد أن الزمخشري يُعلي من قيمة التخييل في القرآن فيقول : "إن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه ، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى باباً في علم البيان أدقّ ولا أرقّ ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإنّ أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديماً ، وما أوتي الزالّون إلاّ من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدره حق قدره ، لما خفي عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدها الموربة ، ولا يفك قيودها المكربة إلا هو "(١) ، وحين تعرض لقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الزمر الآية (٦٧) وجد أن الاستعارة لا تكفي

---

[١] – الكشاف للزمخشري ،جـ٦ /صـ٨٤ .

في الدلالة على المعنى المراد كما يراه هو ، فاستخدم مصطلح التخييل للتدليل على أنه لا يوجد قبض حقيقي ، أو طي حقيقي ، ولا توجد يمين حقيقة فقال: "ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ . والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز "([1]).

وقد أنكر الكثير من العلماء استعمال الزمخشري للفظ "التخييل" في وصفه لأسلوب القرآن المنزل من عند الله سبحانه وتعالى ، مثل ابن المنير السكندري حيث يقول : "وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود ولم يرد به سامع ، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة ، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه ، ولذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا " (٢) .

وقد سار كثير من المفسرين والبلاغيين على هدى الزمخشرى فنجد الرازي يعلي من كلام الزمخشري حيث يقول عندما نقل تفسيره لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [سورة غافر الآية (٧)] قلنا: الفائدة فيه ما ذكره صاحب (الكشاف) ، وقد أحسن فيه جداً فقال: إن المقصود منه التنبه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش ، لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدح والثناء ، لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لا يوجب

---

[1] – الكشاف ،جـ٦ /صـ٨٤.

[2] – الإنصاف فيما تضمنه الكشاف ، ابن المنير الإسكندري ، ج 2 / ص 129.

المدح والثناء ، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء ، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم ، علم أنهم آمنوا به بدليل أنهم مـــا شاهدوه حاضراً جالـــساً هنـــاك ، ورحـــم الله صاحـــب (الكشاف) فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً"(١)

ووجد غير الرازي أنهم يقعون في محظور لديهم ، وهو قبول وجود التخييل في القرآن الكريم لذلك استخدموا مصطلح المجاز المتفرع على الكناية، وذلك لأن في الكناية جواز إرادة المعنى الحقيقي ، فنجد العلامة أبي السعود حين تعرض لقوله تعالى :﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: من الآية15] يذكر أن ذلك من قبيل المجاز المتفرع على الكناية حيث يقول:

"فإن ارتفاع معارج ملائكته إلى العرش ، وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه في لا غاية وراءها ، وإما بجعلهما عبارة عنهما بطريق المجاز المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش"(٢).

---

١ – التفسير الكبير ، ج 27 / ص 29.

٢– تفسير أبي السعود ، ج 7 / ص 270.

المطلب الثاني:

آراء علماء البلاغة في وقوعه في القرآن الكريم

أولاً : رأي ابن سنان الخفاجي :

ممن قال بوجود التخييل في القرآن ابن سنان الخفاجي "وأسماه الاستدلال بالتعليل" ، وبعد ذكره لمثالين من الشعر قال: " وقول الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء الآية (٢٢)]جار هذا المجرى فهذا مبلغ ما نقوله في المعاني مما يستدل به على غيره لأن حصرها مما لا سبيل إليه على ما بيناه وقد قدمنا ذكره"(١).

وقد جانب الصواب ابن سنان الخفاجي في عده هذه الآية من التعليل ، وقد يكون السبب في ذلك راجع إلى القرب بين المذهب الكلامي والذي منه هذه الآية وبين حسن التعليل ؛ لأن الأول يعني :أن يورد المتكلم حجة لما يدعية على طريق أهل الكلام فهو يشترط فيه وجود البرهان والدليل والذي ورد في قوله تعالى: ﴿ لفسدتا﴾

ثانياً : رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني

رفض الإمام عبد القاهر الجرجاني وجود التعليل في القرآن الكريم على أساس أنه يقوم على التخييل ، والتخييل كذب وإيهام والكذب مستحيل على كلام الله تعالى خاصة ، وقد ذكره في سياق السرقات الشعرية ، وما في ذلك من ضروب التخييل والتعليل ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني : "فصل في الأخذ والسرقة وما في ذلك من التعليل، وضروب الحقيقة والتخييل"

---

١ – سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، صـــ١٤٩.

اعلم أن الحُكْم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسَرَق، واقتدى بمن تقدَّم وسبق، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً، أو في صيغة تتعلق بالعبارة، ويجب أن نتكلم أوّلاً على المعاني، وهي تنقسم أوَّلاً قسمين: عقليّ وتخييليّ، وكل واحدٍ منهما يتنوّع، فالذي هو العقلي على أنواع: أوّلها: عقليٌّ صحيحٌ مَجراه في الشعر والكتابة والبيانِ والخطابة، مَجْرَى الأدلّة التي تستنبطها العقلاء، والفوائد التي تُثيرها الحكماء، ولذلك تجدُ الأكثر من هذا الجنس مُنْتَزَعاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي اللَّه عنهم، ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنُهم الصدق، وقصدُهم الحقُّ، أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء(١)

كما يرفض وجود التخييل في القرآن في موضع آخر ، وقد ربط ذلك باستحالة كونه في الاستعارة ، لأنها موجودة في القرآن ، ومادام الأمر كذلك فلا تخييل في الاستعارة حيث يقول: "واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل، لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظةِ المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شَبَهٍ هناك، فلا يكون مَخْبَرُهُ على خلاف خَبَره، وكيف يعرض الشكُّ في أَنْ لا مدخل للاستعارة في هذا الفنّ، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفَى..... وستمرُّ بك ضروبٌ من التخييل هي : أظهرُ أمراً في البُعد عن الحقيقة، وأكشفُ وجهاً في أنه خداعٌ للعقل، وضربٌ من التزويق"(٢)

ويتناول الإمام عبد القاهر الجرجاني التخييل في الشعر بعد رفضه في القرآن جاعلا روعته وجماله في الصور البيانية ، وربط بين هذه الصور وبين التأثير في المتلقي؛فحين يتعرض للتشبيه الذي له صلة بالتخييل نراه يقول:" :وينبغي أن تعلم أن باب

---

١ – أسرار البلاغة ،صـــ١٩٢.

٢ – أسرار البلاغة صـــ٢٠١.

التشبيهات قد حظي من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتي الصفة على غرابته، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف، فإنه قد بلغ حدًا يرد العزوف في طباع الغزل، ويلهي الثكلان عن الثكل"(١)

فالإمام عبد القاهر يرى أن وجود التخييل في طريق التشبيه يكسبه جمالا إلى جمال ، ويضفي عليه سحرا إلى سحر ويقول : "معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية ما لم يروه قط، ولم تجر العادة به، ولم يتم للتعجب معناه الذي عناه ، ولا تظهر صورته على وصفها الخاص، حتى يجترئ على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر، ولا يحفل بتكذيب الظاهر له."(٢)

وقد تعرض الإمام عبد القاهر لمفهوم التخييل في أكثر من موضع في "أسرار البلاغة" ومن هذا حديثه عن الفرق بين العقلي والتخييلي، وقياسه ما نعته بالمعاني العقلية في الشعر في الاستنباط المنطقي للأدلة البينة، وإلحاقه قسماً من التخييلات بالاحتجاج والقياس بضرب من التلطف والمرانة والحذف والصنعة التي يحتال بها الشعراء، وخلاصة القول في مذهبه: إنه قصد بالتخييل ما قصده المتأخرون بالإيهام وحسن التعليل.

ويتحدث الإمام عبد القاهر عن التخييل من المعاني ، ويُظهر أن هذا القسم ليس له من الصدق ما للمعاني العقلية ، لأنها أوسع مسلكا ، ولا يمكن أن تخضع لمقاييس ثابتة ، لذلك هي تحتاج إلى الرفق والحذق ، وذلك حيث يقول: "وأما القسم التخييلي للمعاني فهو الذي لا يمكن أن يقال فيه إنه صـــدق وإن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفي، وهو مفتن المذاهب كثير المسالك... ثم إنه يجيء طبقات، ويأتي على درجات،

---

١ - أسرار البلاغة ،صـــ٢١٢.

٢ - المرجع السابق، صـــ٢٢٦.

فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطي شبهاً من الحق... باحتجاج يخيّل، وقياس يصنع فيه ويعمل(١)".

ثالثاً : التخييل عند حازم القرطاجني:

أما عند حازم القرطاجني فنجد أن مصطلح التخييل قد أصبح له صورة متكاملة ، وفرق بين المخيل(٢) ، والتخاييل(٣) وعرف التخييل بقوله : والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل ، أو معانيه أو أسلوبه ونظامه ، وتفوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها ، أو تصور شيئ آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض(٤)

ثم ذكر طرق وقوع التخييل في النفس بأنها " إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء من طريق الفكر وخطرات البال ، أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا ، او بأن يحاكى لها الشيء بتصوير نحتي أو خطي ، أو ما يجري مجري ذلك ، أو يحاكى لها صوته ، أو فعله ، أو هيأته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيأة ، أو بأن يحاكى لها معنى بقول يخيِّله لها."(٥)

وهو في نظريته عن التخييل تأثر بآراء من سبقه من الفلاسفة والأدباء وخاصة ابن سينا ، كما كان متأثرا بالإمام عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن التخييل وأثره في

١- أسرار البلاغة، صـــ١٩٥.

٢ – ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـــ٨٩ .

٣ – المرجع السابق صـــ٩٠

٤ – المرجع السابق الصفحة نفسها .

٥ – ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـــ٩٠

المعاني الشعرية ، وكذا تأثير التخييل في النفس وعلاقته بالتحسين والتقبيح ، وغير ذلك .

وتأثر حازم القرطاجني بأقوال الإمام عبد القاهر الجرجاني عند تناوله لأثر الشعر في المتلقي حيث يقول:

"ومن التذاذ النفوس بالتخيّل أن الصور القبيحة المستبشعة عندما قد تكون صورها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة لذيذة إذا بلغت الغاية القصوى من الشبه بما هي أمثلة له ، فيكون موقعها من النفوس مستلذا لا لأنها حسنة في أنفسها بل لأنها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به.(١)

وهذا قريب من قول الإمام: "والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم تفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش أو النحت والنقر". (٢)ولكن القرطاجني لا يسير دائما على هدى الجرجاني ، فنجده يمايزه في الفصل في الشعر بين المعاني العقلية والمعاني التخييلية، فهو جعل كلا من المعاني العقلية والمعاني التخييلية متماثلان ، وأنهما صالحان للشعر المخيَّل الذي يؤثر في نفوس السامعين.

فعند حازم القرطاجني أصبح معنى التخييل(٣) أكثر وضوحا عمن سبقه من العلماء، وهو عنده أعم وأشمل مما ذكره العلماء سابقا ؛ لأنه تعرض له من حيث الدلالة الشعرية.

---

١ – المرجع السابق صـــ١١٦.

٢ – أسرار البلاغة، صـــ٢٥٢.

٣ – ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـــ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٠ : ١٢٩ ، ٢٩٢

ويقسم التخييل باعتبار متعلقاته إلى قسمين " تخيل المقول فيه بالقول ، وتخيل أشـــياء المقول فيه وفي القول من جهة ألفاظه ومعانيه ونظمه وأسلوبه، فالتخييل الأول يجري مجرى تخطيط الصور وتشكيلها في فرائد العقود وأحجارها، وتلك الصيغ والهيئـــات هي التخاييل الثواني فهي تجري من الأسماع مجرى الوشي في الـــبرود، والتوشـــية في الأثواب ، والتفصيل في العقود من الأبصار، والنفوس تتخيل بما يخيل لها للشاعر من محاسن ضروب الزينة فتبتهج لذلك، ولهذا نقلوا إلى بعض الهيئات اللفظية التي مـــن هذا القبيل، أسماء الصناعات التي هي تنميقات في الموضـــوعات فقـــالوا: الترصـــيع والتوشيح والتسهيم في تسهيم البرود، وكثير من الكلام لـــيس بشـــعري باعتبـــار التخييل الأول ، ويكون شعراً باعتبار التخييل الثاني."(١)

فحازم القرطاجني حين تعرض للتخييل تناوله من حيث إنه له طاقة على التأثير في المتلقي وتحريك مشاعره ، فنراه يقول : "وللنفوس تحرك شديد للمحاكيات المستغربة ، لأن النفس إذا خيل لها في الشيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله ، وجدت من استغراب ما خيل لها مما لم تعهده في الشيء ما يجده المستظرف لرؤية ما لم يكن أبصره من قبل ، ووقوع ما لم يعهده من نفسه موقعا ليس أكثر من المعتاد المعهود".(٢)

وهو بهذا يسير على نهج الإمام عبد القاهر الجرجاني في جعله عنصر التخييل أشد تأثيرا وهزا للمشاعر إذا كان الهدف من غيره من الأقوال إثبات شيء ، أو ابطاله ، أو التعريف بحقيقته.

---

١ – المرجع السابق صـــ٩٣ ،٩٤ .

٢ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـــ٩٦ .

وحازم القرطاجني يجعل قبول القول عند السامع في حالة الإبداع عند محاكاته وتخييله على حالة توجب ميلاً إليه ، أو نفوراً منه بإبداع الصنعة في اللفظ ، وإجادة هيأته ومناسبته لما وضع بإزائه.

المبحث الثاني :

أولا :الخلط بين مصطلحي الخيال والتخييل في الأدبيات الحديثة

نجد في الدراسات الحديثة من يخلط بين مصطلحي الخيال والتخييل، فمثلا في دراسة لأحد المعاصرين نراه قد خلط خلطا بينا بين مصطلحي الخيال والتخييل ، وساق من الآيات القرآنية ما يتناقض والهدف الذي يريد تحقيقه من هذه الدراسة فمثلا نراه يقول : "ويجب ألا يخفى علينا ويدخل فيه اللبس لدينا حتى نظن أن ليس للتخييل قوانين عقلية ومنطقية نفهمه بها ، وأن مسائله كلها تخضع لما يسميه علماء البلاغة "المجاز" .... فالمجاز ضرب من الخيال والوهم والتأويل والكذب ، والتخييل أعلى رتبة من البلاغة وأجل قدرا منها .(١)

كما يذكر أن التخييل يعنى الثبات فقط، وهذا مخالف لما عليه العلماء الأقدمين أو المحدثين ، بل إنهم رفضوا وجود التخييل في القرآن لمخالفته للممكن ولقيامه على حجج غير معقوله كما ذكرت في هذا البحث.

ونجد آخر يقول : الخيال ملكة فوضوية لا تخضع لسلطان العقل ، ظنه نقاد تللك المرحلة نوعا من الجنون .... يذهب بنا إلى حال من الهذيان والخلط" . (٢)

---

[١] – التخييل بين القرآن الكريم والعهد القديم ، موازنة نقدية بلاغية، د/سليمان عبد الله موسى أبو عزب، ص٧، بدون.

[٢] – ينظر قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د/العشماوي صـــ٥٥.

ثانياً: الفرق بين الخيال والتخييل:

التخييل أعم والخيال أخص ، وذلك لاعتماد التخييل على الإغراق والإفراط في التخيل البعيد عن الواقع ، لقيام المنشئ فيه بابتداع أسباب وتعليلات غير ممكنة ومستحيلة الحدوث ، ويضعها في إطار فني بديع بجعلها، وكأنها هي العلل الحقيقية للحوادث.

ويفرق الإمام عبد القاهر بين مصطلحي الخيال والتخييل حين يتناول التخييل بغير تعليل ، والذي يريد منه التشبيه والاستعارة ، وأثر التخييل في هذا اللون البلاغي فيقول : "وهذا نوع آخر من التخييل، وهو يرجع إلى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل" .

فهو يشير إلى أن التخييل السابق من النوع المعلل إلا أن القادم بيانه هو من التخييل غير المعلل ، والذي يريد به التشبيه والاستعارة .

ويبينه بقوله: " بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال " .

ويوضح هذا النوع عندما يشرح أبيات ابن الرومي :

قامت تظللني من الشمس ... نفس أعز عليّ من نفسي

قامت تظللني ومن عجب ... شمس تظللني من الشمس

" فلو أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى، فليس ببدع ولا منكر أن يُظِلَّ إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهجاً بشخصه".(١)

---

١ – أسرار البلاغة ،صـ٢٢٤، ٢٢٥.

وقد قام الإمام عبد القاهر بتلخيص رأيه في التخييل حين قال: " وجملة الحديث الذي أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى، أما الاستعارة فإن سبيلها الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح في العقل" .(١)

فهنا يذكر الإمام عبد القاهر رأيه صراحة في التخييل ، وأنه نوع من الكذب والخداع ولا يمكن أن تعد منه الاستعارة.

وعرف حازم القرطاجني المخيل بقوله:"والمخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط الأمور أو تنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسياً غير فكري ، سواء كان المقول مصدقاً به أو غير مصدق به، فإن كونه مصدقاً به غير كونه مخيلاً أو غير مخيل، فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه، فإن قيل مرة أخرى أو على هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخييل لا للتصديق، فكثيراً ما يؤثر الانفعال ولا يُحدث تصديقاً، ... والناس أطوع للتخييل منهم للتصديق. (٢)

وبعد هذا يتضح لنا أن التخييل أوسع مجالا من الخيال لأنه يكون مغرقا في التصور وهو يكون أكثر بعدا عن الحقيقة التي لا يمكن أن تقبل وكان هذا أحد الأشياء التي دفعت بالكثير من العلماء لعدم الاعتراف بوجوده في القرآن الكريم لأنه يفترض حدوث أشياء مستحيلة الحدوث ولكن ليس معنى هذا أن التخييل لايمكن قبوله كصورة بلاغية من صور القرآن ، لأنه يخرج هذه الصورة الغريبة المجنحة في الخيال بأسلوب بديع يجعله قريبا إلى الأذهان.

---

[١] – أسرار البلاغة ،صـــ٢٠٢.

[٢] – منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـــ٨٩ .

المبحث الثالث

حسن التعليل دراسة بلاغية

أولاً : تناول علماء البلاغة لحسن التعليل

تعرض الإمام عبد القاهر لحسن التعليل وأطلق عليه "التخييل المعلل"وعرفه بقوله: "وهو أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى".(١)

قال الخطيب القزويني:" ومنه حسن التعليل ، وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي" .

ويشترط الإمام عبد القاهر الجرجاني أن يكون لهذه العلة مسوغ في الكلام من حيث المدح أو الذم أو غير ذلك من الأغراض البلاغية حيث يقول : "..واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العِلّة المدَّعاةِ فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح، أو يكون لها تأثير في الذمّ، كقصد المتنبي هاهنا في أن يبالغ في وصفه بالسَّخاء والجود، وأَنّ طبيعةَ الكرمِ قد غلبت عليه، ومحبَّته أن يُصدِّق رجاء الراجين، وأن يجنِّبهم الخيبة في آمالهم، قد بلغت به هذا الحدَّ، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غَدَت الذئاب تتوقّع أن يتسع عليها الرزق، ويُخْصِب لها الوقت من قَتْلَى عداه، كَرِهَ أن يُخْلِفها، وأن يخيِّبَ رجاءهَا ولا يُسعِفُها، وفيه نوع آخر من المدح، وهو أنه يهزم العِدَى ويكسِرهم كسراً لا يطمَعون بعده في المعاوَدة، فيستغني بذلك عن قَتْلَهم وإراقة دمائهم، وأنه

---

[١] – أسرار البلاغة، صـــ٢٢٠.

ليس ممن يُسْرف في القتل طاعةً للغَيْظ والحَنَق، ولا يعفو إذا قَدَر، وما يُشبه هذه الأوصاف الحَميدة"(١)

فهذا الادعاء يجب أن يكون مقبولا للطفه ودقته ، ولهذا ذكر السعد : "أي بأن ينظر نظرا يشتمل على لطفه ودقته ".(٢)

بمعنى أنه ليس علة في نفس الأمر ، بل اعتبر بوجه يتخيل به كونه صحيحا كان ذلك المعتبر أمرا اعتباريا أو موجودا في الخارج ". (٣)

فإن قيل : كون الاعتبار لطيفا إنما يكون بكون العلة غير مطابقة للواقع في التعليل إذ بذلك يثبت لطفه ، لأن جعل ما ليس بواقع واقعا على وجه لا ينكر ولا يمج هو الاعتبار اللطيف ، وحينئذ فلا حاجة لقوله "غير حقيقي" أي غير مطابق ، لأن ذلك هو معنى كون المعتبر لطيفا؟ قلنا : حصر لطف الاعتبار في كون العلة غير مطابقة للواقع ممنوع ، إذ يجوز في اعتبار العلة المناسبة للوصف ، أن يكون لطيفا أي دقيقا حسنا ، ويكون مطابقا ، وما يكون من البديع يشترط فيه ان لا يطابق ، فلذا وصفه بقوله "غير حقيقي"(٤)

وهنا شيء يجب ملاحظته وهو : أن ليس كل ما هو غير حقيقي يدخل في حسن التعليل ، لأن المراد به ما يقابل الحقيقي ، لذلك احترز العلماء بأن العلة تكون غير حقيقية ، وإلا خرج من حسن التعليل.

---

[١] – أسرار البلاغة، صـــ٢٢١.

[٢] – مختصر السعد ،جـــ ٤ / صـــ373

٣– حاشية الدسوقي ،جـــ ٤ / صـــ373

[٤] –المرجع السابق ، جـــ٤ /صـــ374

وقال السعد في مختصر المعاني : "وما قيل من أن هذا الوصف أعني غير حقيقي ليس بمفيد ،لأن الاعتبار لا يكون الا غير حقيقي فغلط ،ومنشأه ما سمع ان أرباب المعقول يطلقون الاعتباري على ما يقابل الحقيقي ولو كان الأمر كما توهم ، لوجب أن يكون جميع اعتبارات العقل غير مطابق للواقع" .(١)

وهو أربعة أقسام ، لأن الوصف إما ثابت قصد بيان علته ، أو غير ثابت أريد إثباته ، والأول: إما أن لا يظهر له في العادة علة ، أو يظهر له علة غير المذكورة،والثاني : إما ممكن ، أو غير ممكن.

أما الأول فكقول أبي الطيب المتنبي:

لم يحك نائلك السحاب وانما حمت به فصبيبها الرحضاء

والصبيب : المصبوب ، والرحضاء عرق الحمى .

فإن نزول المطر لا يظهر له في العادة علة ، والشاعر استخدم السحاب للدلالة على الماء النازل من السماء للدلالة على الرزق ، يقول ليست تحكى السحاب بمائها عطاءك المتتابع ، فإنه أكثر من مائها وأغزر ، ولكنها حمت حسدا لك فما ينصب من مطرها إنما هو عرق حماها.

واستخدم مادة "حكى من أدوات التشبيه في "يحك" لأن الشاعر ينفي أن يستطيع السحاب أن يأتي بمثله ، لأن لفظ حكي معناه الإتيان بمثل الشيء(٢)

---

١ – مختصر المعاني / سعد الدين التفتازاني ، ص ٢٠٣ .

٢ – الكليات لأبي البقاء الكفوي ، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ص ٤٠٩ ، مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

واستخدم ذلك في صيغة المضارع للدلالة على المحاولة المستمرة من السحاب محاكاته وعدم قدرته على هذه المحاكاة.

وكقول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي

فأبو تمام يذكر علة لعدم وجود المال الكثير بيد الرجل الكريم ، بأن هذه هي طبيعة الكرام التي جبلوا عليها ، أو أنهم مخلوقون هكذا كما أن المياة لطبيعة الجبال المرتفعة لا يمكن أن تستقر على قممها فكذلك المال في يد الكرام.

ومنه قول أبي الطيب :

رحل العزاء برحلتي فكأنني أتبعته الأنفاس للتشييع

يقول إن العزاء رحل عنه بمفارقته لهذه المحبوبة ، ثم أراد أن يصور شدة الألم ، فأتى بعلة غير حقيقية ، وهي أن الأنفاس التي محلها الصدر الذي يجاوره القلب قد أخذ يتصعد لتشييع هذه المحبوبة قضاء لحق المجاورة والصحبة ، فالعلة الحقيقية لتصعيد الأنفاس هي : إظهار الحسرة ، ولكن أتى بعلة غير حقيقية ، وهي مفارقة هذه المحبوبة.

ولذلك قيدوه بكونه غير حقيقي ، أي : غير مطابق للواقع ، بمعنى أنه ليس له علة في نفس الأمر بل باعتبار علة بوجه يتخيل به كونه صحيحا ، أو يكون معنى أنه غير حقيقي ، أي ليس علة في نفس الأمر ، فاعتباره علة أيضا غير حقيقي ، فإن قيل كون الاعتبار لطيفا ، إنما يكون الوصف غير مطابق للواقع في التعليل إذ بذلك يثبت لطفه ؛ لأن جعل ما ليس بالواقع واقعا على وجه لا ينكر ولا يمج هو الاعتبار اللطيف ، فعليه لا حاجة لقوله غير حقيقي ، أي غير مطابق ، لأن ذلك هو معنى كون المعتبر

لطيفا؟ قلت : يجوز أن يكون لطيفا أي دقيقا حسنا ويكون مطابقا ، وما يكون من البديع يشترط فيه ألا يطابق فلذلك وصفه بكونه غير حقيقي..

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم

الكلفة هي الكدرة ويراد بها الغمام الذي يكون على وجه القمر ، فالشاعر هنا يتحدث عن أثر المرثي بعد وفاته ، فقد تجاوز أثره الأشخاص إلى الكائنات الأخرى التي لا يكون للإنسان تأثير فيها عادة ، فهو لذلك يدعي أن الغمام الذي يظلل وجه القمر وهو بدر ليست من الأسباب الطبيعية المعروفة لدينا ، وإنما ذلك ناشئ من أثر لطم القمر على وجهه ، ونواحه على فراق المرثي.

وقال آخر معللا لزلزال حدث بمصر :

ما زلزلت مصر من كيد يراد بها وإنما رقصت من عدله طربا

فالشاعر هنا هو المتنبي وهو يتحدث عن كافور الإخشيدي ، في وقت أصاب فيه زلزال مصر ، ويذكر أن هذا الزلزال ليس بسبب الطبيعة ، وإنما الأرض لإحساسها بالعدل في عهد كافور الإخشيدي اهتزت فرحا بعدل الممدوح.

وأما الثاني فكقول أبي الطيب المتنبي :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

يقول الإمام : "الذي يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم ، وأن يدفع مضارهم عن نفسه ؛ وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم، وقد ادعى المتنبي كما نرى العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك ، واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العِلّة المدَّعاةِ فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح، أو يكون لها تأثير في الذمّ، كقصد المتنبي هاهنا في أن يبالغ في وصفه بالسَّخاء والجود، وأَنّ طبيعةَ

الكرمِ قد غلبت عليه، ومحبَّته أن يُصدِّق رجاء الراجين، وأن يجنِّبهم الخيبة في آمالهم، قد بلغت به هذا الحدَّ، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غَدَت الذئاب تتوقّع أن يتسع عليها الرزق، ويُخْصِب لها الوقت من قَتْلَى عداه، كَرِهَ أن يُخْلِفها، وأن يخيِّبَ رجاءهَا ولا يُسعِفُها، وفيه نوع آخر من المدح، وهو أنه يهزم العِدَى ويكسِرهم كسراً لا يطمَعون بعده في المعاوَدة، فيستغني بذلك عن قَتْلَهم وإراقة دمائهم، وأنه ليس ممن يُسْرف في القتل طاعةً للغَيْظ والحَنَق" . (١)

وكقول أبي طالب المأموني في بعض الوزراء ببخارى :

مغرم بالثناء صب بكسب المجد ... يهتز للسماح ارتياحا

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء ... أن يرى طيف مستميح رواحا

الصب : ذو الولع الشديد . السماح : الكرم . الإغفاء : النوم الخفيف .

المستميح: سائل العطاء. الرواح: العشي .

يصف الشاعر الممدوح بأن لديه ولع بالثناء ، ويصفه ببلوغ الحد الأقصى في ذلك ، فإنه يطرب ويفرح إذا وجد من يسأله بعضا من كرمه ، حتى إذا ما أراد الإغفاء ، فإنه يرجو في منامه أن يرى طيف أحدا يستجديه من كرمه .

فالعلة في النوم المعروفة هي : طلب الراحة من عناء اليوم ، ولكن الشاعر أتى بعلة أخرى للمدوح ، وهي رجاؤه أن يرى سائلا يسأله من فيض كرمه.

وللإمام عبد القاهر الجرجاني ملمح طريف في تقييده بالرواح حيث يقول: وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التي ليست من أوقات الإذن قَلُّوا، فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم ، والإفراط في التعمق ربما أخل بالمعنى من

---

[١] – أسرار البلاغة ،صـ٢٦١ .

حيث يراد تأكيده به ، ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم أنه يحتج له أنه ممن لا يرغب كل واحد في أخذ عطائه.(١)

ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم ... من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت ... والدم في النصل شاهد عجب

إن سبب رمد العين يرجع إلى أسباب معلومة وعوارض تُلم بها ، ولكن الشاعر عدل عن ذلك وتخيل سببا جديدا لإصابة العين ، وهو أن هذا الإحمرار ، إنما هو لون من ألوان الدم الذي تمثل في العين من كثرة القتلى ، وهذا يتفق مع حسن التعليل ، لأن السبب المذكور إنما هو غير حقيقي ولا يمكن أن يقع.

وقول الآخر:

أتتني تؤنبني بالبكا ... فأهلا بها وبتأنيبها

تقول وفي قولها حشمة ... أتبكي بعين تراني بها

فقلت إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها

إن سبب بكاء العين عادة إنما يرجع إلى فراق المحبوبة ، أو إلى مصيبة تصيب الإنسان، ولكن الشاعر عدل عن ذلك إلى سبب متخيل غير واقعي وهو تأديب العين لرؤيتها باستحسان لغير هذه المحبوبة.

وأما الثالث : وهو الوصف غير الثابت الذي أريد أثباته ، وهو إما ممكن بمعنى "إنها مجزوم بانتفائها ، ولكنها ممكنة الحصول"(٢)

فكقول مسلم بن الوليد :

---

١ -أسرار البلاغة ،صـ٢٢١.

٢ - مواهب الفتاح ،جـ٤/ صـ٣٧٨.

يا واشـــيا حســـنت فينـــا إســـاءته ... نجـــى حـــذارك إنســـاني مـــن الغـــرق

فإن العادة أن لا يستحسن الناس إساءة الواشي ، وإن كان هذا ممكنا ، لكن لمخالفته عادة الناس أتى بعد الاستحسان بذكر السبب ، وهو أن هذا منع إنسان عينه مـــن الغرق في الدموع ، ولذلك حسنت الوشاية.

ومن العلماء من يرى أن هذا المثال ليس من حسن التعليل ، قال أبو يعقوب المغربي : " فإن قيل هنا أمران عدم وقوع المعلل ، وكون العلة غير مطابقة ، وكلاهمـــا غـــير مسلم ... فعلى هذا لا يكون هذا المثال من هذا القسم ، ولا من حسن التعليـــل ، فلمطابقة العلة لا يكون من حسن التعليل ، ولثبوت الصفة لا يكون من هذا القسم، قلت : المعتاد أن حسن الإساءة لا يقع من هذا الشاعر ولا من غيره ، فعدم الوقوع مبني على العادة ، وترك البكاء للواشي باطل عادة ، لأن من غلبه البكاء لم يبال بمن حضر عادة ، أيضا ترك البكاء له لا يكاد يتفق في عمر من الأعمار ، وعلى المعتاد في الكلام ، فدعاوي الشاعر استحسانات تقديرية"(١)

وأما الرابع فكمعنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نيـــة الجـــوزاء خدمتـــه ... لمـــا رأيـــت عليهـــا عقـــد منتطـــق

فإن نية الجوزاء خدمته ممتنعة ؛ لأن هذا لا يكون إلا ممن له إدراك (٢)"

وما قيل من أنه أراد أن الانتطاق صفة ممتنعة الثبوت للجوزاء ، وقد اثبتها الشاعر ، وعللها بنية الجوزاء خدمة الممدوح ، فهو مع أنه مخالف بصريح كـــلام المصـــنف في الإيضاح ليس بشئ ؛ لأن حديث انتطاق الجوزاء – أعني الحالة الشـــبيهة بـــذلك–

---

[١] –مواهب الفتاح، جـــ٤ /صـــ٣٧٩.

[٢] – مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني صـــ ٢٠٤، بتصرف.

ثابت بل محسوس. والأقرب أن يجعل لو ههنا مثلها في قوله تعالى﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، أعني الاستدلال بانتفاء الثاني على انتفاء الأول ، فيكون الانتطاق علة لكون نية الجوزاء خدمة الممدوح أي دليلا عليه ، وعلة للعلم مع أنه وصف غير ممكن".

ثانيا :ما يلحق بحسن التعليل

يلحق بحسن التعليل ما كان التعليل فيه قائما على الشك ، وذلك بأن يتضمن الكلام ما يدل على الشك يقول الخطيب القزويني : "ومما يلحق بالتعليل وليس بـــه لبناء الأمر فيه على الشك"،كما ذكر العلامة أبي يعقوب المغربي: "ولم يجعل من حسن التعليل حقيقة ، لأن العلة لما كانت غير مطابقة وأتي بها لإظهار أنها علة لما فيها مـــن المناسبة المستظرفة لم يناسب فيها إلا الإصرار على ادعـــاء التحقق ، وعلـــى ذلـــك يحمـــل التعريف كما هو الأصل" . (١)

نحو قول أبي تمام :

ربى شفعت ريح الصبا لرياضتها ... إلى المزن حتى جادها وهو هامع

كأن السحاب الغر غيبن تحـــتها ... حبيبا فمـــا تـــــرقا لهن مدامع

والسحاب الغر: جمع أَغر، وهي الماطرة الغزيرة الماء، والضمير في تحتها راجع للديار في البيت الذي قبله.

---

[١]– مواهب الفتاح ، لأبي يعقوب المغربي ،جـــ٤ صـــ٢٨٢ .

فاستمرار مطر السحاب على هذه الربا ، إنما هو بكاء من ثاكل غُيِّب له محبوبا تحت الثرى فهي تبكي عليه ، وهذه العلة غير معروفة لأحد ، وإنما ألحق بالتعليل ولم يكن منه ، لقيام التعليل فيه على الشك.

ثالثا:الجمال البلاغي للتخييل في حسن التعليل

يُبنى حسن التعليل على تقديم علة غير واقعية لأمور واقعية ، لذلك يكون فيه دلالة على الملكة الإبداعية للمنشئ وبراعته وقدرته على إبداع أسباب قريبة في دلالتها على العلة المطلوبة ، فمثلا قول الشاعر:

ألست ابن الألى سعدوا وسادوا ولم يلدوا امرءا إلا نجيبا
ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا وصاد الوحش نملهم دبيبا
وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيبا

الريح : الرائحة ، الرياض: جمع روضة .

فهو يجعل مصدر هذا الطيب الجميل الذي نستشعره من وجود النسائم الطيبة لا يرجع إلى الرياض أو الأزهار ، أو الخضرة والنبات ، وغير ذلك مما هو معلوم لدى الناس ، وإنما يرجعه إلى هؤلاء الناس المدفونين تحت الثرى .

ومن ذلك تعليل مجنون ليلى:

وإني لاستغضي وما بي نعسة ... لعل خيالاً منك يلقى خياليا

غفا الرجل وغيره غفوة: إذا نام نومة خفيفة .(١)

النعاس : النوم ، وقيل : هو مقاربته ، وقيل : ثقلته(١).

---

١ – لسان العرب ،ج 15 / ص 130.

فهو يقول إنه يطلب النوم الخفيف ، والعلة المعروفة لطلب النوم أن يكون ذلك من أجل أنه يطلب الراحة من عناء النوم ، ولكنه علل لذلك بتعليل آخر ، وهو: أنه يأمل أن يرى خيال محبوبته في منامه.

وفي المعنى نفسه يقول ابن هرمة:

أحب الليل أن خيال سلمى إذا نمنا ألّم بنا فزارا

فسبب حبه لليل يختلف عن السبب الذي يحب الناس فيه هذا الوقت طلبا للراحة ، ولكنه يحب أن ينام عله يحظى برؤية سلمى في هذا النوم.

ومن حسن التعليل، ما أَنشده عبد الملك بن إدريس الحريريّ بديهاً، وكان بين يدي المنصور أبي عامر في ليلة يبدو فيها القمر تارةً ويختفي بالسَّحابِ تارةً، وهو:

أرى بدر السماء يلوح حينا ... ويبدو ثم يلتحف السحابا

وذاك لأنه لما تبدّى ... وأبصر وجهك استحيا وغابا

لذلك كان اعتماد حسن التعليل على الخيال المفرط البعيدة عن العقل والمنطق.

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني :"والتخييلات التي تهزُّ الممدوحين وتُحرّكهم، وتفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس النَّاظر إلى التصاوير التي يشكِّلها الحُذَّاق بالتَّخطيط والنقش، أو بالنَّحت والنقر، فكما أن تلك تُعجب وتَخْلب، وتَروقُ وتُؤْنِق، وتَدْخُل النفسَ من مشاهدتها حالةٌ غريبة لم تكن قَبْلِ رؤيتها، ويغشاها ضربٌ من الفتنة لا يُنكَر مكانه ولا يخفى شأنه.

فقد عَرَفْت قضيَّة الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصُوَر، ويُشكّله من البِدَع، ويوقعه في النفوس من المعاني

---

[1] – المرجع السابق ،ج 6 / ص 233.

التي يُتوَّهم بها الجماد الصامتُ في صورة الحيّ الناطق، والمواتُ الأَخــرس في قضــية الفصيح المُعرب والمُبيّن المميِّز، والمعدومُ المفقود في حكم الموجود المشاهَد، كما قدَّمتُ القول عليه في باب التمثيل، حتى يكسب الدنيُّ رفعةً، والغامضُ القدرِ نباهةً.

وعلى العكس يغضُّ من شرف الشريف، ويطأُ من قَدْرِ ذي العِزَّة المنيــف، ويظلــم الفضل ويَتَهضَّمُه، ويَخْدِش وجه الجمال ويَتَخَوَّنُه، ويُعطي الشبهةَ سُلطانَ الحجّــة، ويردُّ الحجَّة إلى صيغة الشبهة، ويصنع من المادة الخسيسة بِدَعاً تغلو في القيمة وتعْلو، ويفعل من قلب الجواهر وتبديل الطبائع ما ترى به الكيمياء وقد صَحَّت، ودعــوى الإكْسِير وقد وَضَحت، إلاّ أنها روحانية تتلبّس بالأوهام والأفهــام، دون الأجســام والأجرام"(١)

يقول حازم القرطاجني: " وأيضا ؛ فإن الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفــوس من حيث تختار مواد اللفظ ، وتنتقي أفضلها ، وتركب التركيب المتلائم المتشــاكل وتستقصى بأجزاء العبارات التي هي الألفاظ الدالة علــى أجــزاء المعــاني المحتــاج إليها"(٢)

ويُظهر حسن التعليل القدرة الإبداعية لدى المنشئ التي تساعده على التصوير الفــني الخيالي والموجدة لأسباب وعلل أخرى غير المعروفة والمشاهدة من عامة الناس وأحيانا تكون غير مشاهدة للأدباء أنفسهم ؛ ولذلك نجد أن هذه اللغة الفنية أكثر من برع فيها الكبار من الأدباء في القديم والحديث دون غيرهم.

---

[١] – أسرار البلاغة ،صـــ٢٥٧.

[٢] – منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـــ٩٧

ومن المعاصرين من تعرض لجمال التخييل حيث قال :" كل فلـــذة مـــن الأدب تكتسب أدبيتها بقدر ما تحتل من رقعة الخيال ، فأشكال الأدب إنما هي قطع في خيمة التخيل ، قد تطول أو تقصر ، ترتفع أو تنخفض ، تتجلى في ألوان بهيجة أو باهتة ، لكنها لكي تصبح أدبا لا بد لها من تغطية سطح الواقع وهـــي تصنع طرفا من سمائه ، ولن نستطيع تأملها ونحن نحدق قـــي الأرض ونلتصـــق بترابها ، بل علينا أن نتدرب على هذا المنطلق الأولي في فهـــم الأدب وقراءتـــه باعتباره أعمالا متخيلة ، قد تصمم للمحاكاة أو تخضع لشروط الانعكاس ، وقد تنعتق في جاذبية الأرض ، وتقيم ظلها في طيات السحاب أو بين طبقات الفضاء الزرقاء ، لكنها في جميع الحالات تختلف نوعيا عن تضـــاريس الأرض بجمالهـــا وسهولها وأنهارها ، فهي مقصوصة من قماش اللغـــة ، ومكونـــة مـــن طُنبـــها وفواصلها مما يجعل فحصها وقياس خطوطها ودرجة كثافتها رهنا بإدراك هـــذا الاختلاف النوعي عن الوقائع والعواطف والأفكار التي تتضمن نظائرها(١).

---

١ – من مقدمة كتاب : أشكال التخيل من فنات الأدب والنقد ،د/صلاح فضل .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين جاعل كتابه نورا يهدي الناس إلى الصراط المستقيم ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي المهدى جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه ،ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

وبعد،،،

فهذه خاتمة بحثي المتواضع الذي حاولت فيه أن أقف على رفض الكثير من العلماء إطلاق الخيال على حسن التعليل ، وجعله من التخييل .

كما حاولت فيه التعرض لرفض الكثير من العلماء لوجود حسن التعليل في القرآن الكريم لاعتماده على التخييل الذي يستحيل أن يوجد في القرآن الكريم ولذلك قيدوه بكونه غير حقيقي أي غير مطابق للواقع بمعنى أنه ليس له علة في نفس الأمر بل باعتبار علة بوجه يتخيل به كونه صحيحا .

كما حاولت أن أبرز جمال حسن التعليل وموقعه في البلاغة العربية لما فيه من إثراء للمعنى كما يعطي دلالات بلاغية جديدة وفيه تبديل للمعنى فإذا كان في تغيير حرف من الكلمة ، أو تضعيفها ، أو تغيير في نبرة الصوت في كلمة واحدة فيه إعطاء معنى جديدا للكلمة ، فكيف إذا تم تغيير الصورة كاملة ، والإتيان بسبب جديد فيه دقة ولطف ، فإنه حينئذ أقوى في الدلالة على النقل من معنى إلى آخر ؛ لذلك نجده في بعض صورة يقترب من المجاز اللغوي ، إلا أن في المجاز اللغوي نقل لكلمة من معنى إلى معنى آخر ، مع

وجود علاقة المشابهة بينهما ، والتي أحيانا هذه العلاقة تكون موجودة في حسن التعليل ، وفي بعض صورة الأخرى يقترب من التشبيه المقلوب ، إلا أن التشبيه المقلوب لا بد فيه من وجود أداة أو تقديرها.

كما تعرضت إلى خلط كثير من المحدثين بين مصطلحي التخييل والخيال مخالفين بذلك أقوال الكثير من العلماء في القديم والحديث.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث .

الأستاذ الدكتور/

كمال كامل محمود صالح

أستاذ مساعد في كلية البنات

الإسلامية في أسيوط

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- أسرار البلاغة في علم البيان ، تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ت : السيد محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م .
- أشكال التخيل من فتات الأدب والنقد د/صلاح فضل ، الشركة المصرية العالمية للنشر والترجمة ـ لونجمان ، ط الأولى: ١٩٩٦.
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف، لابن المنير الإسكندري، طبعة دار المعرفة بيروت .
- الإيضاح في علوم البلاغة جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني ، طبعة دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٨.
- تفسير أبي السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المؤلف : محمد بن محمد العمادي أبو السعود ،الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بدون تاريخ .
- حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، طبعة دار السرور بيروت – لبنان.
- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، تحقيق: علي فوده الناشر مكتبة الخانجي – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د/ العشماوي، دار النهضة العربية– بيروت .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ، دار الريان للتراث ،الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .
- الكليات ـــ تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري ،دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف.
- مختصر السعد ضمن شروح التلخيص طبعة دار السرور بيروت – لبنان.
- مختصر المعاني– سعد الدين التفتازاني الناشر: مطبعة سنده .
- مفاتيح الغيب التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، اسم المؤلف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي الوفاة: ٦٠٤ ، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة : الأولى – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء تأليف أبي الحسن حازم القرطاجني المتوفي في ١٤ رمضان سنة ٦٣٤ هـ ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، طبعة دار الغرب الإسلامي ـــ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٦.
- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، طبعة دار السرور بيروت – لبنان.